

تأثير التضاريس في علاقة القبائل الممتنعة بالسلطة في الجزائر

خلال العهد العثماني- الجبل أنموذجا

The influence of the topography on the relationship of
the abstaining tribes to power in Algeria during the
Ottoman era- The mountain is a model

كاسم ولقب المؤلف المرسل: عبد الغفور نصر الدين- Abdelghafour Nacereddine/ صص275- 295

الدرجة ومؤسسة الانتماء: طالب دكتوراه- جامعة محمد لمين دباغين-سطيف2

البريد الإلكتروني: abdelghafour.nacereddine@yahoo.fr

كاسم ولقب المرسل الثاني: د. فارس كعوان- Fares kaouane

الدرجة ومؤسسة الانتماء: أستاذ محاضر أ- جامعة محمد لمين دباغين-سطيف2، وعضو في مختبر

التاريخ والتراث/ البريد الإلكتروني: fares_kaouane@yahoo.fr

تاريخ استقبال المقال: 2012/12/01 تاريخ المراجعة: 2020/01/20 تاريخ القبول: 2020/01/25

الملخص: نروم في هذه الدراسة تسليط الضوء على علاقة السلطة المركزية بالقبيلة الجزائرية خلال العهد العثماني في ظل تأثير العامل الجغرافي وبالأخص دور الجبل الذي كان عاملا مؤثرا بما لديه من أبعاد، باعتباره ذو دلالة رمزية على القوة وعمق استراتيجي كملجأ حصين حاسم للهروب من الأعداء مهما كانت صفتهم، أعطى للكثير من القبائل فرصة الامتناع والخروج عن طاعة السلطة لما يوفره من حماية وتأثير نفسي تلجأ إليه لتكون بعيدة عن الخضوع والسيطرة، مما أرق السلطة باعتبار أن أي قوة خارج المراقبة يمكن أن تشكل خطرا على استمراريتها، ولهذا تطور الأمر ليكون صراعا كانت له انعكاسات سلبية على الجزائر ككل خاصة من حيث بقاء القبائل ممزقة بين ثلاثة أصناف (المخزن، الرعية، الممتنعة)، أو التأثير الاقتصادي بانعدام الأمن والاستقرار، ولكن السلطة العثمانية اتبعت أساليب للتغلب على عامل الجبل، كاللجوء إلى حرمان القبيلة الممتنعة من السهول والأسواق، فالجبل مهما كان لا يمنح حاجيات القبائل كلها؛ فهو يفتقر للعديد من المواد الضرورية، وبخاصة المنتجات الغذائية كالقمح، والتوصل في بعض الأحيان إلى اتفاقيات سلام، أو تلجأ إلى الحملات

العسكرية وتسديد ضربات قوية ترغم القبائل الممتنعة بالجبل على الطاعة، وعلى الرغم من كون الجبل ذا تأثير سيئ وسلبي في الغالب، إلا أنه أتاح في بعض الأحيان فرصا للتقارب والتعاون، وبخاصة لما كانت السلطة بحاجة إلى المقاتلين لصد الهجمات الأجنبية أو استغلال موارده الطبيعية لاسيما الخشب لصناعة السفن.

والمتتبع لتاريخ البشرية يجد أن العوامل الجغرافية والتضاريس قد لعبت دورا لا يستهان به في تطور الحضارات؛ فالحضارة المصرية هبة النيل، ولم تكن اليونان لتعرف نظام المدينة الدولة لولا الجبال التي تميز هذه الرقعة، واستمر الأمر في الفترة الحديثة، فلو لم تكن بريطانيا جزيرة لما تمكنت من تسيد البحار، بمعنى أن الأمر لم يقتصر على الجزائر فقط، بل كانت ميزة رسمت معالم الحضارة الإنسانية عبر العصور.

الكلمات المفتاحية: التضاريس الجغرافية، القبائل الممتنعة، القبائل الرعية، قبائل المخزن، السلطة، الجبل، السهل، الصحراء، الجزائر، العهد العثماني، الأسواق.

Abstract: In this study, we highlight the relations of the central authority with the Algerian tribe during the Ottoman era in the light of the influence of the geographical factor and in particular the role of the mountain, which influenced its dimensions, because it has a symbolic indication of strength and strategic depth as a critical fortified refuge to escape from enemies, whatever their characteristic, This has given many tribes the opportunity to abstain and no longer obey authority because of the protection and the psychological impact they provide to avoid submitting and controlling, which has thrown authority due to the fact that any force outside of control can threaten its continuity, and this has evolved to be a struggle which had a reflection Negative repercussions on Algeria as a whole, in particular in terms of survival of the tribes torn between three classes (warehouse, wall sse, abstention), or economic impact of insecurity and stability, but the Ottoman authority followed methods to overcome the mountain factor, such as the recourse to the deprivation of the tribe of the plains and the abstained markets, the mountain is important It did not meet the needs of all tribes because it lacked many necessary materials, especially food items such as wheat, and sometimes entered into peace agreements, Or resort to military campaigns and powerful strikes that force mountain tribes to obey, and although the mountain has often had a negative

and negative impact, it has sometimes provided opportunities for rapprochement and cooperation, especially when the authority needs fighters to repel foreign attacks or exploit its natural resources, especially timber for shipbuilding.

A follower of human history finds that geographic factors and topography have played an important role in the development of civilizations, since Egyptian civilization is the gift of the Nile, and Greece would not have known the city system. State without the mountains that characterize this patch and if the case had continued in modern times, if Britain had not been an island, it could not have prevailed The sea prevails, in the sense that this is not only Algeria, but a characteristic that has defined the characteristics of human civilization through the ages.

Keywords: geographic topography, abstinent tribes, parish tribes, makhzen tribes, power, mountain, plain, desert, Algeria, Ottoman era, markets

1-المقدمة: مع بداية القرن السادس عشر، حل العثمانيون بالجزائر لتحقيق جملة من الأهداف منها التصدي للقوى الأوروبية وتوسيع رقعة الخلافة، فسيطروا على هذه المنطقة التي يُعتبر غالبية سكانها ذوي انتماء قبلي يعتزون به حسب ما يشير إليه الباحثون⁽¹⁾، متبعين في ذلك عدة آليات في الحكم منها التصنيف، ومن منظور السلطة هذا نجد ثلاثة أنواع من القبائل، مخزنية ورعية وممتنعة، وقد لعب الموقع الجغرافي دورا كبيرا في هذا التصنيف، فنجد أن القبائل الرعية هي التي تسكن السهول دون وجود تضاريس صعبة أو جبال تحميها، فدخلت في طاعة السلطة، أما المخزنية فهي القبائل القوية، قوية لامتلاكها الأرض والرجال، فأثرت السلطة التعامل معها وتبادل المنفعة.

والنوع الثالث هي القبائل الممتنعة، التي تتمركز بعيدا عن السلطة المركزية، وتسكن في الغالب مناطق جبلية وعرة، والتي فضلت ما يقدمه لها الجبل من حماية لتتمتع بالاستقلالية، وتحافظ على نسيجها الاجتماعي والثقافي، وهكذا وبفعل الجبل وبعده الاستراتيجي عاشت في استقلالية، وبعيدة عن الخضوع والاستسلام، وبخاصة بعد عجز السلطة في الوصول إليها.

وسنحاول في هذا العمل التطرق إلى العلاقة التي كانت تربط السلطة المركزية العثمانية في الجزائر والقبائل الممتنعة انطلاقا من تأثير الموقع الجغرافي وبالأخص

الجبل والاحتفاء به، وما يقدمه لهذه القبائل من بعد استراتيجي للحماية، محاولين الإجابة على مجموعة من الأسئلة أهمها: ماذا نقصد بالقبائل الممتنعة؟ ما هو الدور الذي لعبه الجبل في بقائها ممتنعة، وماذا قدم لها من مميزات وآليات لتجاوز ضغط السلطة المركزية، وهل لهذا الأمر انعكاس على البلد ككل؟ وهل نجحت القبائل الممتنعة في فرض منطقها انطلاقاً من خلفيتها الجبلية، أم أن السلطة المركزية استطاعت التغلب على عامل الجبل، وشدت هذه القبائل إلى فلكها؟

2- تعريف القبيلة:

1-2 لغة: تعرف على أنها بنو الأب الواحد، واشتق الزجاج اسم القبيلة من قبائل الشجر أي أغصانها، كناية عن وحدة الأصل وتفرع الفروع، أما من حيث الترتيب فيرى الكلبي أن الشعب أكبر من القبيلة، ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ⁽²⁾.

2-2 اصطلاحاً: هي اعتقاد الناس بانتمائهم إلى جد واحد مشترك، انتماء يميزها عن غيرها من المجموعات المماثلة لها، يعيشون معا في رقعة جغرافية معينة، تتميز هذه المجموعة بروح الجماعة والتضامن الكبير الذي يربط بين أفرادها، لدرجة يكاد يُلغى فيها مفهوم الفرد، لتعوضه الجماعة مما يمنحها التماسك والاستمرارية ومواجهة الصعاب، وتلعب العصبية القبلية دوراً مهماً في تحقيق هذا الأمر⁽³⁾.

وتعرف أيضاً على أنها نسق من التنظيم الاجتماعي، يتضمن عدة مجموعات محلية، والتي تقطن إقليماً معيناً، وتسودها ثقافة مشتركة ولغة واحدة، وإحساس قوي بالتضامن والوحدة، وقد تنقسم إلى مجموعات، وبخاصة في حالة كان الإقليم كبيراً بالمقارنة مع عدد السكان⁽⁴⁾.

أما علماء الأنثروبولوجيا فإنهم وبالرغم من التعريفات الكثيرة التي قدموها للقبيلة إلا أنهم يتفقون فيما بينهم على ثلاث نقاط أساسية⁽⁵⁾:

* هو مصطلح للدلالة على التجمعات السكانية المنتشرة في رقعة جغرافية معينة.
* هي كيان ذو هوية ثقافية تتداول لغة محددة ونظاماً من الرموز والمعاني وغالباً ما تكون في حالة صراع مع قوة أجنبية، سواء كانت قبيلة مماثلة أو سلطة مركزية.

*هي كيان سياسي يكتسب خصوصية متمثلة في امتلاكه نوعا من النظام السياسي ولو كان بدائيا وعفويا، وتتولد عن هذه الخصوصية امتلاك حدود إقليمية وآليات تنظيمية وقدرة على احتواء النزاعات والصدامات الداخلية، وذلك عند الإحساس بوجود خطر خارجي يهدد وجودها.

وما يلاحظ من التعريفات التي قدمتها مختلف العلوم، اشتراكها كلها في عنصر فيما بينها، يحدد وجه القبيلة بشكل كبير، ألا وهو المجال الجغرافي أو الأرض التي تعيش عليها، لأنه لا وجود لأي نشاط أو تفاعل للإنسان ما لم تكن هناك رقعة جغرافية محددة يمارس عليها هذا النشاط.

وفي أهمية المجال الجغرافي يقول رحال بوبريك: "يحتل البعد الجغرافي أحد محددات القبيلة، لأن رابطة النسب لا تكفي وحدها، بل يجب أن تحتل أرضا تمارس عليها سلطتها وتدافع عنها، ويشكل المجال الجغرافي، جزء من هويتها، وهذه الأرض لا تحدد فقط طابع عيش الجماعة بل تؤثر بقوة على العلاقات الاجتماعية"⁽⁶⁾.

3- الجبل وتأثيره في حياة القبيلة: للجبل تأثير واضح على القبيلة التي اتخذته موطنها لها، ويلقي بظلاله عليها سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية.

فمن الناحية السياسية يمنح الجبل القبيلة العمق الاستراتيجي لتحقيق الاستقلالية والحماية والحرية دون الخوف من التدخل في شؤونها الداخلية من قبل قوى أجنبية، وفرض الطاعة عليها وإخضاعها، وخاصة فيما تعلق بالضرائب، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا الأمر في حديثه عن قبائل زواوة حيث قال: "وجب لهم ما بين بجاية وتدلّس، هو أعظم معاقلم وأمنع حصونهم، فلهم به الاعتزاز على الدول، والخيار على إعطاء المغرب"⁽⁷⁾.

وبالتالي فمقي تمكنت السلطة المركزية من اختراق هذا العامل المانع للحماية؛ فإنه بإمكانها أن تتحكم في القبيلة، وتسيرها وفق ما تقتضيه مصلحتها ورؤيتها. ومن الناحية الثقافية والاجتماعية فالجبال تحافظ على النسق الاجتماعي، وتخفف بشكل كبير من حدة المؤثرات الثقافية الخارجية، وبذلك تحافظ القبيلة على

مكونات ثقافتها لفترة طويلة من الزمن، وهو ما تشير إليه الباحثة آني راي غولديزغار التي تطرقت إلى قدرة الجبال على الحفاظ على المبادئ واللغة والثقافة القديمة⁽⁸⁾.

ويكمن سر هذا في كون الجبال تمنح جوا معيشيا يتسم بالانغلاق والعزلة، مما يبرئ ظروفًا مناسبة للحفاظ؛ فكل قبيلة من قبائل الجبال تكون في حالة تماس قليلة مع العالم الخارجي المحيط بها، وفي هذا الصدد يقول بروديل: "السكن في الجبال غالبا ما يكون موزعا ومشتتا، حيث يُرغم السكان على العيش منغلقيين على أنفسهم، وينتجون معظم ما يحتاجون إليه بالرغم من العوائق والصعوبات، فالجبل في العادة يبقى مقيما على هامش الحضارات التي هي صنعة المدن"⁽⁹⁾.

ليس هذا وحسب، ولكن الجبل يدخل في الثقافة الشعبية العالمية عموما والجزائرية على وجه الخصوص ليعبر عن الرجولة والأنفة والشموخ والاعتزاز بالنفس، يقول اليامين بن تومي في كتابه أمراض الثقافة: "الجبل في ثقافة الجزائري يساوي المقاومة، آخر الأمكنة التي منها دائما تأتي استعادة الشرف، إنه الأنف الذي يشير إليه الجزائري حينما يريد أن يعبر عن الأنفة والشموخ، ينتصب الجبل تماما مثل الفحولة التي تجعل الجزائري يشك في كل شيء إلا في فحولته لأنها تساوي الجبل دائمة الانتصاب والشموخ... وبالتالي فالجبل في مخيال الجماعات في الجزائر يثير في ذهنيها الرجولة، أو بلغتنا الدارجة الرُّجْلة"⁽¹⁰⁾.

وفي المخيال الشعبي الجزائري ينظر السكان إلى الجبل بنوع من القداسة لارتباطه بالدين الإسلامي الذي يدينون به، فقد ذكر الجبل في القرآن الكريم في سياقات عدة، كدليل على عظمة المعبود عز وجلّ وآية من آيات قدرته، فقال: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت(17) وإلى السماء كيف رفعت(18) وإلى الجبال كيف نصبت(19)"⁽¹¹⁾، وذكرت الجبال كمكان مقدس ومهبط للوحي كجبل الطور⁽¹²⁾ في سيناء، الذي أقسم الله به فقال تعالى في السورة التي سميت باسم هذا الجبل: "والطور(1) وكتاب مسطور(2)"⁽¹³⁾، كما نجد وقفة عرفة التي هي أعظم شعائر الحج تقام على الجبل وهو جبل عرفات، كما كان النبي يحب جبل أحد فعن أنس بن مالك

أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جبل أحد: "هذا جبل يحبنا ونحبه"⁽¹⁴⁾.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد فرض الجبل نمطا إنتاجيا واستهلاكيا معيناً، فالإنتاج لا يتعدى بعض الأنواع لقلة الأرض الصالحة للزراعة خاصة الزراعات الكثيفة وقلة تواجد المياه التي تتجه نحو السهول، فمنطقة زواوة الجبلية مثلاً كانت تعتمد بشكل كبير على إنتاج زيت الزيتون والتين، وبعض الخضار والبقوليات الموجهة للاستعمال الشخصي كالبصل والثوم والحمص والفاصوليا، واستغلال الغابات المتواجدة هناك⁽¹⁵⁾.

إن الإنتاج القليل قد حدد الوضع المعيشي للسكان، فهذا الأخير كان صعباً يقتصر على خبز الشعير وبعض المواد الأخرى المنتجة محلياً كالزيت والتين المجفف والبلوط وحليب الماعز، وهو غذاء قليل السعرات الحرارية، أما اللحم فكان من النادر تناوله إلا في المناسبات، مما انعكس سلباً على الحالة الصحية للسكان، ورغم هذا كانت هذه المناطق الجبلية على عكس ما يعتقد الكثير عامرة وأهلة بالسكان⁽¹⁶⁾. وقد تمكنت الجبال من التأثير بشكل كبير على سير وتشكل حضارات بأكملها، وأعطت لها الصبغة التي كانت تميزها، وخير دليل على ذلك الحضارة اليونانية، إذ تميزت بالنظام المعروف بـ"المدينة- الدولة"، هذا النظام الذي يُرجع الكثير من المؤرخين سببه إلى الطابع التضاريسي لليونان الذي تغلب عليه الجبال، وهو الأمر الذي حال دون اتصال هذه المدن فيما بينها وتحقيقها للوحدة المطلوبة لتشكيل دولة واحدة، فتوزعت الحضارة اليونانية على طول تاريخها في عدة مدن مستقلة بعضها عن البعض⁽¹⁷⁾.

4- التضاريس الجبلية في الجزائر: يغلب الطابع الجبلي على شمال الجزائر، حيث تخترقه سلسلتين جبليتين من الشرق إلى الغرب، هما الأطلس التلي والأطلس الصحراوي، فالأطلس التلي عبارة عن سلسلة جبلية تقع بالموازاة مع الساحل الجزائري، تمتد من الحدود الشرقية للجزائر إلى حدودها الغربية على طول يمتد إلى 1500 كلم، وأعلى قمة بها هي قمة لالة خديجة بعلو يصل إلى 2308 متر فوق مستوى

سطح البحر، وسلسلة الأطلس الصحراوي تقع جنوب الأطلس التلي، وتسير بموازاته من الشرق إلى الغرب أيضا، وأعلى قمة بها هي قمة شيليا في الأوراس 2328 متر فوق مستوى سطح البحر، وفي هاتين السلسلتين غابات كثيفة ومنحدرات شاهقة، وقمم مرتفعة، نذكر منها جبال إيدوغ بالشمال القسنطيني (2008م) وجبال جرجرة وجبال البابور (1970م) والونشريس (1985م)، وأعلى قمة بالجزائر هي تاهات أتاكور في الهقار بارتفاع يقدر بحوالي 3003 متر فوق مستوى سطح البحر⁽¹⁸⁾.

5- قدوم العثمانيين إلى الجزائر وإعادة هيكلة النظام القبلي: قدم العثمانيون إلى الجزائر مع مطلع القرن 16م في سبيل توسيع رقعة الخلافة الإسلامية، وكذا لصدّ الهجمات الإسبانية على شواطئ المغرب الأوسط في حلقة جديدة من حلقات الحروب الصليبية، وقد وجد العثمانيون الجزائر قبليّة بامتياز، فعملوا بصفتهم سلطة مركزية على إعادة هيكلة النظام القبلي بما يتماشى مع مبدأ الحكم العثماني الذي يقوم على إدارة مجالات واسعة بأعداد قليلة من الجند، وقد بقي النظام القبلي هو السائد طيلة العهد العثماني رغم ما أدخل عليه من تعديلات، حيث أحصى لويس رين مع مطلع الاحتلال الفرنسي ما يفوق 500 قبيلة كبيرة موزعة على مختلف ربوع هذه المنطقة⁽¹⁹⁾.

وعلى هذا الأساس أوجد العثمانيون ثلاثة أنماط من القبائل انطلاقا من نقطة الارتباط بين الطرفين، وهي:

1-5 قبائل المخزن: وهي المتعاونة مع السلطة المركزية، الداخلة في خدمتها، قد تكون منتمية إلى أصل واحد، أو اصطناعية شكلتها السلطة، تؤلف قوة عسكرية مهمتها المساعدة في إرساء الأمن والسلم ومراقبة المجال وجمع الضرائب، مقابل الحصول على الامتيازات كالإعفاء من الضرائب ما عدا العشور والزكاة والحصول على الأراضي وغيرها، وقد كان دورها فعالا خاصة مع قلة جند الأتراك العاملين في الجزائر⁽²⁰⁾.

2-5 قبائل الرعية: وهي القبائل التي أرغمتها بعض الظروف على الخضوع: كقربها من مقر السلطة أو ضعفها (الخوف من الإغارة)، أو فقرها (عدم امتلاك الأراضي

الزراعية)، وعلى عكس القبائل المخزنية لم تكن تتمتع بأي امتياز، بل كان عليها تحمل العبء الضريبي⁽²¹⁾.

3-5 القبائل الممتنعة: وهي القبائل التي لم تخضع لسلطة الأتراك مطلقاً، أو خضعت بشكل مؤقت أو جزئي أو شكلي، وقد ساعدها موقعها الجغرافي لتكون ممتنعة بالإضافة إلى قوتها أحياناً، فقد كانت بعيدة عن يد السلطة، وسكنت جبالاً وعرة منحتمها الاستقلال كمنطقة زواوة والأوراس والبيان⁽²²⁾.

وهذا تقسيم وظيفي غير ثابت، بمعنى أنه يمكن أن تتحول قبيلة مخزنية إلى رعية، أو رعية إلى مخزنية، أو ممتنعة إلى مخزنية، استناداً على بعض العوامل ومنها: الطاعة والعصيان، الحصول على امتيازات، تقديم خدمات جليلة للسلطة ونحو ذلك، فقبيلة مهاجر التي كانت مخزنية تحولت إلى قبيلة رعية، وذلك نتيجة تمرد لها على السلطة عام 1808م، وقبيلة الحشم التي كانت رعية تحولت إلى قبيلة مخزنية بعد مساندتها للباي محمد بوكابوس في حربه على درقاوة، لتدور عليها الدائرة وتصبح رعية بعد مساندتها للتيجانيين في نزاعهم مع الأتراك⁽²³⁾.

وقد انتشرت القبائل الممتنعة في الجزائر خلال العهد العثماني بشكل كبير، إلى حد جعلت بعض المؤرخين والدارسين يشككون في أن سلطة الأتراك قد سادت جميع الأراضي التي احتلتها فرنسا فيما بعد.

يذكر لويس رين أن فرنسا استطاعت إحكام قبضتها على حوالي 48 مليون هكتار من أراضي الجزائر إلى غاية مطلع القرن 20م، مقدماً أرقاماً رسمية صادرة عن المصالح الحكومية الفرنسية، مفادها أن فرنسا سيطرت على مساحة قدرها 47.897.025 مليون هكتار، أما الأتراك فلم يتمكنوا من السيطرة إلا على 7.825 مليون هكتار، تقطعها القبائل الرعية والمخزنية، أما البلاد المستقلة فكانت في حدود 35 مليون هكتار، وتشمل الجبال والصحراء مواطن القبائل الممتنعة⁽²⁴⁾.

إن الأرقام التي قدمها لويس رين وبالرغم من انطلاقها من أهداف تخدم الاحتلال الفرنسي، إلا أنه بالمقارنة مع ما ذكره المؤرخون الآخرون، يتبين لدرجة ليس

فيما شك أن سلطة الأتراك واجهت صعوبة بالغة في السيطرة وإخضاع القبائل الممتنعة التي تسكن الجبال؛ فقد منحتها هذا الأخيرة الاستقلالية.

فكل القبائل القاطنة في الجبال الممتدة من أقصى الساحل الشرقي بعنابة إلى بجاية، ومن شرشال إلى مستغانم، ومن وهران إلى الحدود الغربية للجزائر والأوراس والونشريس وجبال عمور الممتدة من الشمال الغربي إلى معسكر وبني سنوس والقبائل المجاورة لتلمسان كان تغلغل الأتراك فيها والسيطرة عليها محدودين⁽²⁵⁾.

وهذا ليس بالشيء الغريب؛ فالجبال حسب المؤرخين كانت شاهقة ومنحدرة للغاية، وليس في الإمكان الوصول إلى غالبيتها، وحتى الأتراك لم يكن في وسعهم فعل شيء ما عدا إقامة بعض الأبراج في سفوحها كبرج سباو وبرج حمزة، وهذه الأبراج في أحسن أحوالها لم تكن تتعدى 12 برجاً من القالة إلى وهران، منها 4 فقط قابلة للاستخدام أثناء فصل الشتاء (من الاعتدال الخريفي إلى الاعتدال الربيعي)⁽²⁶⁾.

ويصف لنا فندلين شلوصر هذه الجبال ووعورتها عند حديثه عن أسرته ونقله إلى الجبال ما بين 1832-1837 فيقول: "وكل ما لاحظته أن الجبال كانت عالية جداً، فكثيراً ما كنا نصعد ساعة كي نصل إلى قمة الجبل، وسكان الأطلس لا يقيمون في هذه الوهاد، إنما يبنون بيوتهم أيضاً في الهواء، ليحموها من هجمات الأعداء، ومن الماء في الشتاء"⁽²⁷⁾.

ويبدو أن هذا الأمر كان من أكثر ما يلاحظه الرحالة والمؤرخون، مما يدل على انتشاره وسيادته، مثل الرحالة هابنسترايت الذي يصف الأمر بقوله: "في 29 أبريل 1732 وصلنا إلى الجبل، وصعدنا قسماً منه بمشقة كبيرة يملكنا الخوف من القبائل التي تسكنه، والتي ظلت إلى الآن تدافع عن حريتها، وتمانع عن دفع الضريبة لحكام الجزائر"، مضيفاً إلى إن هذه القبائل ليست ولم تكن أبداً خاضعة، إذ تتصدى لجنود المحلة عند تحركها لاستخلاص الضريبة منها، ضارباً المثال بقبيلة بني هارون التي هي في حرب معلنة مع السلطة التركية، جاعلة من الجبل الذي تحتمي به نقطة ارتكاز لضرب ضربات موجعة⁽²⁸⁾.

وبالنظر إلى ما رواه المؤرخون والرحالة عن الحالة الجبلية للجزائر، فلا نستغرب صعوبة وقوة تلك القبائل لذلك فالمحلة لا تتوغل في الجبل، ولكن تكتفي بالسير بمحاذات⁽²⁹⁾. عندما نجد معاقل السلطة المركزية التركية لا تتعدى التواجد في السهول، وأما المناطق الجبلية فلا يد لها فيها، بل وقفت تلك القبائل كقمم الجبال التي تسكنها، عصية عن يد السلطة؛ فاللجوء إلى المنحدرات يعطي التفوق وعدم التقهقر؛ فقد حافظت تلك القبائل المتشعبة بالجبل على استقلالها الذاتي، وألحقت الكثير من الهزائم المذلة بقوات السلطة التركية⁽³⁰⁾.

ويمكن اعتبار أكثرية المناطق التي تقطنها القبائل الممتنعة في الجزائر هي منطقة الشرق الجزائري كمنطقتي زواوة والأوراس، وهذا تماشيا مع علاقة طردية مفادها أنه كلما كانت الجبال أكثر وعورة وأكثر انتشارا كانت القبائل الممتنعة أكثر وجودا، فجبال جرجرة والأوراس والشمال القسنطيني مواقع حصينة يصعب اختراقها، تقول غولديغار: "وفي الجزائر الشرقية تسود الجبال التي هي الملاجئ للحياة الريفية مع أشكال الاستقلال متكيفة مع الظروف الطبيعية"⁽³¹⁾.

هذا دون أن ننسى جبال البيان التي تتحكم في الطريق السلطاني الرابط بين مدينة الجزائر وعاصمة بايلك الشرق قسنطينة، والتي يطلق عليها اسم الأبواب الحديدية حيث وبمجموعة صغيرة من الرجال يمكن أن تشكل خطرا على جيش بأكمله إذا ما أراد المرور من هناك⁽³²⁾.

6- نماذج من القبائل الممتنعة وصراعها مع السلطة التركية: من بين النماذج التي جعلت من الجبل نقطة قوة لها قبيلة فليسة بمنطقة زواوة، حيث لم تستطع السلطة التركية إخضاعها إلا شكليا نظرا لموقعها الحصين، وبعد أن دفعت بسبع حملات عسكرية ناحيتها⁽³³⁾.

لقد سیر الداي ناحية فليسة قوات عسكرية في حملة أولى عام 1767م فمنيت بالهزيمة، ثم جهز لها حملة أخرى بعد عام بقيادة أحمد بن علي باي قسنطينة، وقد شاركت فيها الكثير من القوات من العاصمة والبيالك الثلاث (قسنطينة، التيطري، وهران)، وضمت القوات الكثير من الشخصيات البارزة في هرم السلطة، على غرار

الخنزاجي وخوجة الخيل وبايات الشرق والغرب وال تييطري، وتجمعت كل هذه القوات عند سفح جبل فليسة، وأعدت خطة للهجوم تعتمد على تقسيم القوات إلى سبعة فرق والتوغل داخل الجبل ومحاصرة القبيلة، لكن القوات التركية تكبدت خسائر فادحة في العدة والعتاد، مما اضطرهم إلى الجنوح للسلم فيما بعد، ليس هذا فحسب بل تمكنت فليسة حتى من تهديد الجزائر العاصمة لدرجة أضحى فيها الداي نفسه لا يخرج من القصر مخافة الاغتيال، خاصة وأنه تعرض لست محاولات منها من طرف أعضاء ترسلهم فليسة⁽³⁴⁾.

قبل هذا، وفي عام 1642 ثار المقرانيون في جبال البيبان، مستعينين بوعورة المنطقة (الأبواب الحديدية)، وتحكمها في الطريق السلطاني المهم جدا للسلطة، فحشدت هذه الأخيرة جيشا بقيادة يحي آغا من العاصمة بمساعدة القائد يوسف من قسنطينة، والقائد مراد من التيطري، والقائد شعبان من زمورة، وكثرت المعارك التي لم تتوقف إلا بعد تعهد السلطة بإلغاء بعض الضرائب المفروضة على السكان، وبلغت وطأة تلك القبائل إلى حد جعلت السلطة التركية عندما تمر من هناك لا تشعل النار ولا ترفع الأعلام، وقد تدفع حتى حقوق المرور⁽³⁵⁾.

والأمر نفسه نجده عند الحراكنة والنمامشة والحنانشة، وهي كلها قبائل قوية تستوطن الأوراس، والتي كانت في صراع مع السلطة بسبب عدم الرغبة في دفع الضرائب كنوع من الخضوع والاستسلام رغم أنها كانت قبائل غنية، مستفيدة من جبال الأوراس للحماية وعدم الإذعان، فتنتصر أحيانا وتنتصر السلطة أحيانا أخرى⁽³⁶⁾.

وتجدر الإشارة إلى أن الصحراء يمكن لها الحلول محل الجبل في قدرة القبائل على الامتناع، خاصة وأنها واسعة وتتطلب خبرة كبيرة للتوغل فيها وملاحقة قبائلها، فالصحراء مهمة للعثمانيين لوجود مدن كبني ميزاب وورقلة وعين ماضي وبسكرة وتقرت التي تكتسي أهمية بالغة خاصة من الناحية الاقتصادية، وتسيير القوافل إلى إفريقيا جنوب الصحراء، ويبين هذا محاولات إخضاع تلك المنطقة على غرار حملة الباي محمد الكبير إلى الجنوب، ووصله إلى عين ماضي عام 1799⁽³⁷⁾.

لقد منح الجبل لهذه القبائل بعداً مقاومتها، وصمدت بشكل استثنائي ضد كل محاولات الإخضاع التي فرضتها عليها السلطة، ونستشف هذا من تواريخ تمكن الأتراك من جعلها متعاونة وليست خاضعة، فقد حدث هذا أواخر العهد العثماني الذي امتد في الجزائر على مدار ثلاثة قرون.

*فليسة توصلت إلى هدنة مع الأتراك عام 1768م.

*آث جناد: إحدى قبائل الزواوة خضعت بعد حملة باي التيطري عام 1753.

*الناماشة والحراكتة حتى عام 1822 كانت لا تزال ممتنعة بعد عدة محاولات لإخضاعها كمحاولة 1799 من طرف الباي الوزناجي، وحملة 1817 من طرف شاكر باي قسنطينة.

*صالح باي يصل إلى توقرت سنة 1792.

*الباي محمد باي الكبير الذي خلد أحمد بن هطال التلمساني حملته على قبائل الجنوب لم يصل إلى عين ماضي إلا عام 1799.

والملاحظ أن كل هذه التواريخ تمت في أواخر العهد العثماني مما يبين صعوبة مهمة الأتراك مع هذه القبائل، كما أن كل هذه القبائل لديها عامل مشترك فيما بينها، وهو الموقع الجغرافي الصعب؛ فكلها استوطنت الجبال أو الصحراء، وهي أماكن تعجز السلطة في الوصول إليها.

وتجدر الإشارة إلى أن صراع القبائل الممتنعة مع السلطة العثمانية كانت له عواقب وخيمة على الجزائر ككل؛ فقد انعدم الأمن وأضحى الكل مهدداً، وتراجعت جوانب الحياة المختلفة، وخاصة الاقتصادية منها، حيث أرغمت القبائل على التخلي عن الاستقرار مخافة رجال السلطة الذين يمكن أن يغيروا عليهم في أي وقت خاصة مع بداية الصيف أو الخريف عندما تخرج المحلة لاستخلاص الضرائب من مختلف مناطق الجزائر، وبدأت حياة البدو والتنقل والهروب من بطش السلطة وأعوانها، وهذا التنقل أضر كثيراً بالقطاع الزراعي⁽³⁸⁾، يقول لويس رين: أنه نتيجة لهذه الظروف الصعبة لجأ الكثير من الفلاحين إلى تربية المواشي وعدم الاستقرار في الأرض

لخدمتها، أو الالتجاء إلى الزراعات المؤقتة، بخاصة في البلاد التي ينعلم فيها الأمن، وأصبحت تسمى ببلاد البارود أو بلاد الخلا⁽³⁹⁾.

ولم يكن الإنسان تحت هذا الظرف المعقد مهتما بتطوير حياته وإثرائها، ولكن كان همه الوحيد هو ألا يملك شيئاً، مخافة أن يسلبه الأتراك إياه، فلا تتعد ملكيته خيمة ينقلها من مكان إلى مكان، وكان يعمل فقط ليأكل، ومن الأفضل عدم امتلاك شيء ليسهل عليه التنقل والاختباء بين الجبال إذا وصل الأتراك على حين غرة مع التسلسل أحياناً لزراعة الشعير والفاصوليا⁽⁴⁰⁾.

والأسوأ من هذا أن هذه الوضعية تسببت في فقدان الثقة بين الرعية والحكام، مما تسبب في عدم وجود اللحمة بين فئات المجتمع الجزائري مما أدى إلى السقوط السريع للحكومة التركية، وينقل لنا أحد الباحثين عن أحمد بن أبي الضياف تدمير الجزائريين حيث يقول: "إن أهل الجزائر وأعرابها، وهو السواد الأعظم سئموا سطوة الجند الأتراك، وبلغ السيل الزبي"⁽⁴¹⁾.

ومع مطلع القرن التاسع عشر ازداد التدمير من قبل القبائل، ليرجم في شكل ثورات قادها بعض الشخصيات مثل ابن الأحرش⁽⁴²⁾، والشريف الدرقاوي⁽⁴³⁾.

7- أساليب السلطة لاختراق القبائل الجبلية: إن السلطة العثمانية كسلطة مركزية يهملها الحفاظ على الأمن لأنه الوحيد الذي يكفل لها الاستمرارية، وعلى غرار أي سلطة وفي أي مكان فإنه يزعجها وجود سلطات أخرى موازية تقوم بمهامها الأمر الذي يخلق ثنائية في الحكم، فكل سلطة محلية غير متحكم بها وغير مراقبة من قبل السلطة المركزية تشكل تهديداً حقيقياً لها، لأنها قد تكبر وتتقوى نتيجة عوامل، وتهدد وجودها، ولئن كان هذا الأمر غير مهم في حالة كانت القوى المحلية ضعيفة، أو في حالة السلم، إلا أنه في حالة الحرب تنقلب الأمور، ورغم حرص السلطة العثمانية على عدم وجود ثنائية في الحكم إلا أن مساعيها لم تفلح، فبرزت الثنائيات سواء من خلال القبائل الممتنعة أو القوى الدينية الممثلة في الطرق الصوفية، حتى أضحت الثنائية سمة العهد العثماني⁽⁴⁴⁾.

ولتجاوز دور الجبل فقد اتبعت السلطة العثمانية عدة أساليب منها:

1-7 الحملات العسكرية: كالتى ذكرناها ضد فليسة، أو حملات أخرى كالتى قام بها باي قسنطينة الوزناجي (1795-1798)، الذى تميز حكمه بالشدّة والغلظة، ضد أولاد بوعون في جبل الأوراس، وقتل الكثير منهم، وتخريب ديارهم وقطع أشجارهم وأخذ أموالهم، ومن بعده الباي محمد شاکر (1814-1818)، وكان سفاكا للدماء بحق وغير حق، والباي إبراهيم الكريتلى الذى قام بحملة ضد النمامشة والعمامرة عام 1822، واستولى منها على غنائم معتبرة تقدر بحوالى 200 ألف فرنك من كل منهما⁽⁴⁵⁾. وقد كثرت هذه الحملات أواخر العهد العثماني حيث رأت السلطة في هذه القبائل موردا اقتصاديا للملئ الخزينة، بخاصة وأن هذه الأخيرة شهدت ضعفا كبيرا من حيث المداخليل أواخر العهد العثماني، نتيجة تراجع غنائم البحر المورّد الرئيسي لها.

وبالتالى فإن الدولة لم يكن بمقدورها تسيير نفقاتها، وكان الحل الأسرع لها هو مطالبة القبائل بالمزيد من الأموال، لكن هذه القبائل لم يكن أيضا بمقدورها الدفع بسبب فقرها، كون الجبال كما قلنا سابقا لا تقدم الشيء الكثير⁽⁴⁶⁾. إلا أن هذه الحملات العسكرية لم تكن تؤتي أكلها دائما ضد هذه القبائل الجبلية، ولم تتمكن السلطة من فرض منطقتها عليها، فقبيلة فليسة مثلا وبالرغم من الحملات المتكررة ضدها، إلا أنه لم يُقضى على شوكتها، ولكن في المقابل تم التوصل إلى اتفاق، وهو صلح يعتبر فضيحة بالنسبة للسلطة، وتعبيرا كبيرا على عجزها في إخضاع هذه المناطق الجبلية، إذ انتهى الصراع عندما تعهدت قبيلة فليسة بتقديم الضريبة في مقابل تعهد السلطة بعدم دخول إقليم القبيلة مهما كانت الأسباب، وألا تتدخل في المسائل الداخلية للقبيلة، ولا تطارد المجرمين واللصوص في إقليمها، وهي هدنة مذلة لأن السلطة التركية هي التي تفرض الشروط باعتبارها سلطة مركزية وفي يدها مقاليد الحل والعقد، كما أنها بعملها هذا تتنازل على أراضي يمكن اعتبارها نظريا من حقها، وسمحت بتشكيل جمهورية صغيرة مستقلة إن صحّ القول⁽⁴⁷⁾. إن حالة فليسة ليست شاذة؛ ففي مرات عديدة كانت القبائل القاطنة في الجبال تفرض منطقتها على السلطة، كإملاء المعاهدات عليها أو حتى دفع الضرائب

للمرور من أراضيها؛ فمثلا اصطدم الأتراك بالمقرانيين في عهد بوزيد بن بتكة الذي أرق العثمانيين مستغلا جبال البيان، لأن هؤلاء الأخيرين رفضوا دفع رسوم المرور من الأبواب الحديدية أثناء توجههم إلى قسنطينة؛ فأبواب الحديد كما تسمى جبال البيان أرقّت العثمانيين وفيما بعد الفرنسيين، وكانت السلطة العثمانية في مرات عديدة تتجنب المرور من تلك المناطق كي لا تثير غضب القبائل هناك⁽⁴⁸⁾.

وهذا ما نقله هابنسترايت قائلا: "جبال شاهقة يمر بها ممر طبيعي يربط بين الجزائر وبايلك الشرق، وهو طريق سلطاني يحرسه برج حمزة (البويرة حاليا)، وقد ينقطع الطريق رغم أهميته القصوى بسبب عصيان القبائل الجبلية بجرجرة، فتضطر السلطة لتحويل المسلك ليمر بسور الغزلان تجنباً لكائن القبائل الجبلية المتمردة"⁽⁴⁹⁾.

2-7 الرضا بالعيش المشترك: بالنظر إلى وعورة هذه الجبال وعدم تمكن السلطة من اختراقها، ولأنه لا يمكن العيش في صراع دائم، فإنها ترضى ببقاء تلك القبائل ممتنعة شريطة التوصل إلى اتفاق يرضي الطرفين، يقول أرزقي شويتام: "لقد نهجت السلطة إزاء هذه القبائل سياسة خاصة، فلم يكن من أولوياتها فرض الضرائب كما هو الشأن في المناطق السهلية الخاضعة، بل كانت تهدف إلى تحويلها إلى قبائل مخزنية، أو إجبارها على الأقل لدفع ضريبة رمزية تعبيرا عن ولائها وتبعيةها للإدارة"⁽⁵⁰⁾.

لقد حافظت هذه القبائل على استقلالها وحكمها الذاتي، وألحقت العديد من الهزائم المهينة بالأتراك، بل وفرضت عليها رسوما معينة، هذا الموقف كان كافيا للأتراك من أجل التريث والبحث عن عناصر مشتركة للتعايش فيما بين الطرفين، فهم غير حريصين على القيام بالعمليات العسكرية والاستكشافية التي يعتقدون أنها لن تجلب الربح الوفير أو تحقق لهم غايات إستراتيجية، وغير مستعدة في الوقت نفسه لتخسر العدة والعتاد من أجل تحقيق أهداف قليلة، ما لم تستدع الضرورة القصوى ذلك، وبالموازاة مع هذا الأمر فقد عمدت السلطة إلى اتباع معاملة عادلة مع العرب والبربر الساكنين في الجبال، والذين ظلوا ممتنعين لأنها كانت في حاجة إليهم أوقات

الشدة، إذ يرجح أنه باستطاعة هؤلاء حشد مائة ألف مقاتل للتصدي للإسبان الذين طالما شكلوا تهديدا على الجزائر، والمتوقع هجومهم في أي لحظة⁽⁵¹⁾.

ويؤكد هذا أرنست مرسى بقوله: "لم تحاول السلطة التركية إرغام القبائل، بل كانت راضية وقنوعة بمشاركة السيادة على المناطق الداخلية للبلاد، وبخاصة إذا تمكنت من الحصول على المال (الضرائب) بوسائل متاحة"⁽⁵²⁾.

3-7 الاستعانة بشيوخ الزوايا والمرابطين: يعتبر التحالف بين السلطة العثمانية ورجال الدين والزوايا من السمات البارزة أثناء العهد العثماني، وأصبح الأمر شائعا، إذ شكلوا حلقة وصل بينها وبين السكان، وعملوا على تهدئتهم وإبقائهم تحت السيطرة، وأضحى هذا التحالف واضحا للعيان، يقول أبو القاسم سعد الله: "وشاع في الجزائر التحالف بين العثمانيين والمرابطين حتى عرف الناس أنه هناك سياسة عامة متبعة"⁽⁵³⁾.

وقد أدى المرابطون دورهم بشكل كبير؛ فكانوا يحافظون على الأمن، ويقربون السلطة من القبائل، ويسيرون القوافل، ويفضون النزاعات بين الناس والقبائل خاصة المتعلقة بالمياه والأراضي، ومن بين هذه المهام إبقاء القبائل الجبلية هادئة، خاصة وأنهم يتمتعون بسمعة طيبة وكلامهم وأوامرهم لا تعصى أبدا، يذكر حمدان خوجة أن سكان زواوة الممتنعين وعلى الرغم من عدم قبولهم الخضوع لأي سلطان، فإن طاعتهم للمرابط علاقة لا يمكن تفسيرها، فقد كان هؤلاء المرابطون يحظون بالقداسة والاحترام، وكلمتهم مسموعة بين السكان، وطاعتهم طاعة عمياء؛ ففي اعتقادهم أن رضا الله من رضاهم، وأن أسخطه من سخطهم⁽⁵⁴⁾.

ومن الأمثلة التي أظهرت فائدة هؤلاء بالنسبة للسلطة المركزة في بلاد زواوة استغلال خشب غابات تلك الجبال الذي لم يتم إلا بعد معاهدة تمت بين السلطة والشيخ عبد القادر بن محمد أمقران، فأتى هو بدوره العمل للسلطة دون أن تخشى هذه الأخيرة إزعاج السكان لها أو تهديدها⁽⁵⁵⁾.

4-7 خلق الصراعات بين القبائل: وهو ما حدث عند تصنيف القبائل إلى مخزنية وممتنعة ورعية، وجعل بذور الشقاق حاضرة دائما لإنهاء جميع القوى، وخروج

السلطة منتصرة، بخاصة وأنها تقدم امتيازات للبعض، وتحرم البعض الآخر: فتجعل المحروم دائما متطلعا للحصول على أي امتياز.

5-7 الحرمان مما يقدمه السهل: إن القبائل الممتنعة هي في مأمن مادامت متحصنة بالجبل، ويصعب النيل منها هناك، وتعقبها في تلك الشعاب التي فيها مخاطر كثيرة لم يكن في مقدور السلطة العثمانية تحمل تبعاتها كما أسلفنا، لذلك فعوض مطاردتها في بيئتها ودون معرفة مسبقة بمكان المعركة، يتم انتظارها حتى تنزل إلى السهل، وهذا الأمر سيحدث عاجلا أم آجلا.

فالجبال وبالرغم من منعها لديها نقطة ضعف، وهي أنه ليس في مقدورها تلبية كل حاجيات القبائل التي تقطنها؛ فهي فقيرة من حيث الزراعة والغراسة اللازمتين للعيش، بخاصة أن العهد العثماني يغلب عليه الطابع الفلاحي، ومنتجاته قليلة لا تلي الطلب، لذلك كان النزول نحو السهل محتما عليها للبحث عن مصادر تلي النقص الذي تعاني منه، فالولوج إلى الأسواق أمر ضروري قصد البيع والشراء والمقايضة؛ "فالسوق عصب الحياة الاقتصادية للقبيلة، يوفر لها ما تحتاجه من حبوب ومواشي...، ولأن السوق مهم للقبيلة؛ فإن السلطة العثمانية كانت تستغلها كنقطة ضعف لصالحها، فكانت تمارس سلطتها الرقابية على القبائل، ويعتبر المنع من ولوج الأسواق والانتفاع من مزاياها إحدى الوسائل المهمة للسلطة لتقييد القبائل المتمردة غير الرغبة في دفع التزاماتها المالية أو المساهمة بالسلاح في العمليات العسكرية"⁽⁵⁶⁾.

وفي السهل فإن هذه القبائل الممتنعة تفقد عامل قوتها، لذلك لا ترغب عادة الدخول في مشاكل وصراعات مع القبائل القاطنة بالسهل أو مع السلطة المتمركزة في السهل، وتجنح للسلم، أما إذا ما حدث العكس وتحتم القتال فإن الاستدراج إلى الجبال هو الحل الأنسب والخيار الأمثل، حيث تكون لهم السيادة⁽⁵⁷⁾.

8- الجبل ودوره في تقارب القبائل الممتنعة والسلطة: إن كان الجبل مجالا لخلق توتر بين القبائل والسلطة العثمانية، وهو الأمر الغالب، إلا أنه في حالات معينة كان الجبل سببا في حدوث تقارب بين الطرفين، وذلك في حال معرفة الطرفين المتصارعين

بأن هناك مصلحة أسمى، فساهم الجبل في تقريب الرؤية والمسافة، ومن الحالات على ذلك نذكر توصل السلطة مع المقرانيين لاستغلال خشب غابات جبال بجاية وجيجل. لقد كانت قوة السلطة العثمانية تكمن في أسطولها البحري، وكان هذا الأخير في حاجة مستمرة إلى الخشب اللازم للصيانة، أو لبناء سفن جديدة وتقويته، وكانت السلطة حريصة على التزود بالخشب الجيد، وحصلت عليه في مرات عديدة من قبل الدول الأوروبية بعد إبرام المعاهدات معها، ولكن ازدادت الحاجة إلى الخشب أواخر العهد العثماني، وبخاصة بعد تراجع الأسطول، ولم يعد سيدا على البحر الأبيض المتوسط، ولم يعد الحصول على الغنائم كما كان سابقا، فتم الالتجاء إلى غابات جيجل وبجاية، خاصة أن نوعية أخشابها جيدة كالزان والبلوط؛ فتوصل العثمانيون إلى اتفاق مع القبائل بمساعدة المرابطين مقابل حصول تلك القبائل على امتيازات معينة⁽⁵⁸⁾.

سمح التعاون بين الطرفين للسلطة ببناء السفن وتجديد الأسطول، كما سمح للقبائل الحصول على مقابل تمثل في المال أو امتياز استغلال الأراضي في السهول، فبني فوغال كانت تنتقل إلى قالة لممارسة النشاط الفلاحي، وكانت تحصل على شهادة تثبت ذلك كما حدث في عهد إبراهيم باي قسنطينة⁽⁵⁹⁾.

كما أن الخطر الخارجي كان يُقرب بين القبائل الجبلية والسلطة المركزية، وبرز التضامن بين الطرفين أثناء الحملة الإسبانية على الجزائر العاصمة عام 1732م، حيث استعدت الحكومة للدفاع المدينة، بعد أن تأكدت من امتثال القبائل الجبلية للطاعة واستعدادهم لتقديم العون؛ فالقبائل لم تتخذ معقلا للابتزاز رغم أنه يمكن لها ذلك، ولكن غلبت المصلحة العامة انطلاقا من مبدأ التضامن⁽⁶⁰⁾، ومن جهة أخرى بين لنا هابنسترايت أهمية الجبال بالنسبة لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني، وكيف حافظت عليها رغم الحملات الأوروبية الكثيرة التي تعرضت لها فيقول: "إن مدينة الجزائر تتفوق في الدفاعات بفضل قلاعها وحصانة موقعها الطبيعي بفعل الجبال العالية التي تحيط بها، إذ يتحتم على كل مهاجم لها احتلال تلك المرتفعات قبل القيام بأي عمل عسكري ضدها"⁽⁶¹⁾.

خاتمة: بعد دراستنا لهذا الموضوع توصلنا إلى النتائج التالية:

- القبائل الممتنعة في الجزائر خلال العهد العثماني هي القبائل التي بقيت خارجة عن سيطرة السلطة المركزية كليا، أو كانت شبه مستقلة تتمتع بالحرية في إدارة شؤونها.

- لعبت عدة عوامل لتكون هذه القبائل ممتنعة منها الفقر والقوة، وحب الاستقلالية، والعامل الجغرافي.
- لعب الجبل دورا مهما في تحديد العلاقة بين القبائل الممتنعة والسلطة المركزية نظرا لما يوفره للقبيلة من حماية وعمق استراتيجي مكنتها من تجاوز ضغوطات السلطة.
- لم تبقى السلطة مكتوفة الأيدي إزاء هذا الوضع، وعملت على تجاوز تأثير الجبل في رسم علاقتها بالقبائل الممتنعة، وذلك باتباع مجموعة أساليب منها التحالف مع شيوخ الزوايا، وحرمان القبائل من المميزات التي يقدمها السهل.
- بالرغم من أن الجبل كان عاملا مهما في وجود عداء وصراع بين السلطة والقبائل الممتنعة، إلا أنه في بعض الأحيان كان عامل وحدة واتحاد خصوصا لما كانت السلطة بحاجة لخدمات الجبل أو خدمات القبائل القاطنة فيه كالاستفادة من الخشب، والمساعدة في قتال الأعداء.

الهوامش:

- 1- الهواري عدي، الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي (1830-1960)، ترجمة: جوزيف عبد الله، الطبعة الأولى، دار الحداثة، لبنان، 1983، ص 58.---2- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، مصر، د.ت، مادة "قبل".---3- صلاح مصطفى الفوال، البناء الاجتماعي للمجتمعات البدوية، دار الفكر العربي، مصر، 1983، ص 292.---4- محمد غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1990، صص 490-491.
- 5- الهادي الهروي، القبيلة والإقطاع والمخزن: مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث (1844-1934)، إفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص 49.---6- رحال بوبريك، زمن القبيلة: السلطة وتديير العنف في المجتمع الصحراوي، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، المغرب، 2012، ص 9.---7- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، مراجعة سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، 2006، ص 169.---8- أي راي غولديغار، المملكة العربية، ترجمة: محمد المعراجي، موفم للنشر، الجزائر، 2014، ص 32.
- 9- فرناند بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي زمن فيليب الثاني، تعليق وإيجاز: مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، لبنان، 1993، ص 170.---10- اليامين بن تومي، أمراض الثقافة، دار الوطن اليوم للنشر، الجزائر، 2017، صص 149-152.
- 11- سورة الغاشية، الآيات: 17، 18، 19.---12- الطور: من الجبال المقدسة المذكورة في العديد من سور القرآن الكريم، وهو جبل يقع في سيناء جمهورية مصر العربية، ارتبط بقصة سيدنا موسى عليه السلام، ففيه كلمه الله تعالى وألقى عليه الوصايا العشر.---13- سورة الطور، الآيات: 2، 1.---14- صحيح البخاري، رقم الحديث: 2889، صحيح مسلم، رقم الحديث: 1365.
- 15- أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، الجزائر، الطبعة، الأولى دار الكتاب العربي، 2009، ص 312.
- 16- حمدان خوجة، المرأة، تحقيق وتقديم: محمد العربي الزبيري، ANED، 2005، الجزائر، ص 24.
- 17- لطفي عبد الوهاب يعي، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1991، صص 35-37.
- 19- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1992، الجزء الأول، القسم الأول، ص 112.
- 20- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية: دراسة وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار البصائر، الجزائر، ط 2، 2008، ص 22.---21- أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص 257.---22- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 103.
- 23- Walson Esterhazy, de la domination turque dans l'ancienne régence d'Alger, libraire de Charles Gosselin, paris, 1840, p267.---24- Luis Rinn, Le royaume d'Alger sous le dernier Day, Edition Adolphe Jourdan, Alger, 1900, p5.---25- Ernest Mercier, La question indigène en Algérie au commencement du XXsiècle, Augustin Challamel édit., France, 1901, p80.---26-

François Leblanc de Prébois, Algérie De la Nécessité de substituer le gouvernement civil au gouvernement militaire pour le succès de la colonisation d'Alger, Delaunay libraire, France, 1840, p9.

27- فندلين شلوصر، تاريخ قسنطينة أيام أحمد باي، ترجمة: أبو العيد دودو، منشورات وزارة الثقافة في إطار الجزائر عاصمة الثقافة العربية، الجزائر، 2007، ص15-28-ح أو، هابنسترايت، رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732.

تحقيق وتقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، د.ت، ص63-29-المرجع نفسه، ص70

30- Joost Van Vollenhoven, Essai sur le Fellah Algérien, thèse pour le doctorat, Faculté de droit, université de Paris, France, 1903, p 12.

31- أني راي غولدنزيغار، المرجع السابق، ص32.

32- Arsène Breteuil, L'Algérie Française, T2, Dentu éditeur, 1865, France, p 32.

33- أحمد الشريف الزهار، مذكرات نقيب أشرف الجزائر (1754-1830)، تحقيق أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص28-34-صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي (1514-1830)، دار هومة للنشر، الجزائر، (د. ت)، ص167-35-محمد الصالح بن العنتر، فريدة مؤنسة في حال دخول الأتراك إلى بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، تحقيق: يحي بوعزيز: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص39.

36- محمد العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص26.

37- قام الباي محمد الكبير باي بايلك الغرب بحملة عسكرية على قبائل الجنوب المتحصنة بالجيال والصحراء وهذا سنة 1785، ووصل إلى عين ماضي معقل الطريقة التيجانية، وقد نجح في إخضاع الكثير من القبائل في طريقه وقد خلدت حملته في كتاب من تأليف أحمد بن هطال التلمساني، رحلة محمد الكبير باي الغرب إلى الجنوب الصحراوي الجزائري 1785، تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، 1968-38-أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص285.

39- Luis Rinn, op ; cit, p 131.----- 40- Joost Van Vollenhoven, op ; cit, p35.

41- حنيفة هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، الطبعة الأولى، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص217.

42- ابن الأحرش: هو محمد بن الأحرش، ينتهي إلى الطريقة الدرقاوية، قاد انتفاضة ضد السلطة التركية في بايلك الشرق معتمدا على إثارة قبائل نواحي جيجل بداية من 1803، وقد شكلت هذه الثورة صعوبة بالغة للسلطة في عهد عثمان باي، للمزيد ينظر: ناصر الدين سعيدوني: ثورة ابن الأحرش بين التمرد والانتفاضة، مجلة الثقافة، العدد (78)، الجزائر، 1983.

43- الشريف الدرقاوي: هو محمد بن عبد القادر الفيلقي من نواحي فرنندة، قاد انتفاضة ضد السلطة التركية في بايلك الغرب حوالي 1802، وادعى أنه المهدي المنتظر، أرق السلطة التركية، وتمكن من هزيمتها في عدة معارك، مثل معركة فرطاسة، اختلف في سنة وفاته، للمزيد ينظر: مسلم بن عبد القادر: خاتمة أنيس الغرب والمسافر، تحقيق: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974-44-عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، الجزائر، 1999، ج3 ص45-45-أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص283-284-46-المرجع نفسه، ص285-47-صالح عباد، المرجع السابق، ص167-48-المرجع نفسه، ص162-49-هابنسترايت، المصدر السابق، ص71-50-أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص274.

51- Joost Van Vollenhoven, op; cit, p 46.----- 52- Ernest Mercier, op ; cit, p 9.

53- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ج1 ص472-54-حمدان خوجة، المصدر السابق، صص18-19-55-لخضر بوطبة، غابات منطقتي بجاية وجيجل ودورها في تدعيم قوة الأسطول الجزائري خلال العهد العثماني، المجلة التاريخية الجزائرية، مخبر الدراسات والبحث في الثورة الجزائرية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، العدد 5، 2015، صص222-224-56-سلطانة عابد، التراتبية الاجتماعية في بايلك الغرب وأثرها على مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم التاريخ، جامعة وهران، الجزائر، 2011/2010، صص99-103-57-فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص98-58-لخضر بوطبة، المرجع السابق، ص42-59-المرجع نفسه، ص52-60-هابنسترايت، المصدر السابق، ص74-61-المرجع نفسه، ص75.